



في حلب والمقدادية وصناعة وطربلس، في قرى ودساكر كثيرة، تجري صناعة مشاهد مجترة، ربما تصل إلى حد السيطرة على قرية هنا، ومفرق طريق هناك، لكنها تشكل المداميك الأساسية في إعادة البناء الجيوسياسي للمنطقة، يحصل ذلك بتصميم وإلحاد من الأطراف المنخرطة في الهجوم على الجغرافية العربية، وبغياب وعي عربي جمعي عن المشهد وتشكّلاته.

وبكلف منخفضة نسبياً، تجري عمليات إعادة تمويع كبرى في مفاصل النظام الإقليمي العربي، بالتزامن مع محاولات إجراء تعديلات في بنية النظام الدولي وتراتبية القوة فيه، وانخفاض التكاليف محفز لصناعة ديناميات تخريبية في المنطقة، تبدأ اليوم في شوارع بعض المدن، وتنتهي بترسيمات إقليمية كبرى، فضلاً عن أنها تصنع نمطاً من القيادات المتواحشة والآراء العامة المتطرفة في بلدانها، تصبح نهمة ومتطلبة لمزيد من الإيجازات، ذات التكلفة الرخيصة والمدعمة للحس القومي، وليس هناك فراغ مغِّر لتصريف تلك البطولات وظهورها سوى العالم العربي، بحيث تصبح أمكنته فرصة لتسجيل أكبر عدد من النقاط، تحصيناً للمواجهات الكبرى في الملعب الدولي.

لا تحتاج اللعبة إلى شرح كبير وتفصيل خرائطي. هي عملية تغيير جيوسياسي كبيرة، تأخذ شكل القضم التدريجي والتحطيم المنهجي، عمليات التطهير والحسار في مضايا والمقدادية وبعض قرى حوران السورية وشوارع حمص، إن طالت سكان هذه البلدات لكنها تتجاوزهم إلى إطباقي الحصار على عالم عربي أوسع، وكل شارع يسقط في مدن سورية وعراقية هو بمثابة تحطيم ركن في النظام الإقليمي العربي.

يتركّز معظم الضغط الآن على الخليج العربي، باعتباره القوة الوحيدة التي يمكن أن تشكل نواة لقيمة النظام العربي، ولديها القدرة على ترميم الخراب الحاصل، وتمحور الجهود حول دفع الخليج إلى الانكفاء عن الساحات المشرقية في مرحلة أولى،

وتأخذ هذه المحاولات مظاهر متعددة من التهديدات الإيرانية الصريحة إلى التهديد الروسي المبطن، وصولاً إلى الانفصال الأميركي عن التنسيق الأمني والإستراتيجي مع هذه المنطقة، وتركها تواجه المخاطر منفردة. وفي الخليج إدراك إستراتيجي ناهض يعتبر أن سوريا والعراق صارت خطوط دفاع أولى عن الأمن الخليجي، وتقدير أن سقوط المقاومة فيها سيكون بداية مرحلة العبث بالجيوسياسية الخليجية وإعادة تشكيلها، ليس بما يتوافق مع خطوط الدم وحدود انتشار الطوائف. ولكن، بما يتواتق، أيضاً، مع خطوط الغاز والنفط، بوصفها المدعاً الحقيقى لصعود القوة الناهضة دولياً وإقليماً.

تعامل الأنظمة العربية القادرة على التأثير في حماية بنية النظام الإقليمي العربي، وعدم تغيير ديناميكية الصراع في المنطقة، انطلاقاً من مبدأ توفير الجهد لما تعتقد أولويات أمنية داخلية، واستحقاقات مقبلة. لكن، العدو فيها دائماً داخلي بامتياز، وકأن الحظر الخارجي أمر ملغى من أجناد تلك الأنظمة، وكأن البيئة الدولية أصبحت صحية، إلى درجة أن التوجّس من مخاطرها نوع من الترف التقديري الذي لا يلزم الأنظمة المشغولة بأعدائها الذين يجري تصنيعهم غالباً، وتضخيم أحجامهم ومخاطرهم في غرف استخباراتية معتمة.

وتمارس الأطراف الخارجية سياسات عزلٍ، تقوم على حصر انحرافها مبدئياً ضمن مناطق محددة "التدخل الروسي- الإيراني في سوريا". ويبعث هذا النمط التدخلي رسائل إغراء تكتيكية لبعض الأنظمة العربية، بعضها يقوم على التخلص من أعداء محتملين "الجماعات الإسلامية"، وبعضاً ينطوي على احتمالية منح أدوار وظيفية، لكن هذه الإغراءات تنطوي على مخاطر أمنية قاتلة، على المديين المتوسط والبعيد، بحيث يصبح أمن البلدان العربية تحت خطر الانكشاف على قوى خارجية، لا يتتوفر معها ضمانات بعدم التمدد أكثر في الفضاء العربي.

في هذه اللحظة الحاسمة، ترنو العين إلى مصر، فلا إمكانية لقيام قوة عربية هجومية، بدون قيادتها ومشاركتها. وبدون مصر، ستبقى القوة العربية دفاعية، ستضطر مع استمرار الضغط إلى التراجع عمّا تعتبره أقل قيمة وأهمية إستراتيجية أمام تصاعد الخطر والتهديدات. ومع مصر، ستتحول القوة العربية إلى قوة هجومية مبادرة في الإقليم. ثقل مصر السكاني ورمزيتها السياسية وعلاقاتها التاريخية يمنحها هذه الصفة. مع مصر، يتوقف تآكل قوة الخليج المادية وقدراته العسكرية التي يجب أن توفر للقادم، وحتى قدرة مصر، في إطارها العربي، سيجري ترميمها وتدعيمها، مصر التي بإمكانها رفد القوة العربية تستطيع أن تحقق جل أهدافها من خلال عملية اندماج ضمن المصالح القومية والأمنية العربية.

تمتلك مصر كل المقومات التي تجعلها عاملًا مساعداً على وقف الانهيارات الحاصلة في الفضاء العربي. ويدفع تلك المقدرات مع الإمكانيات التمويلية الخليجية وقوة المقاومة في المشرق العربي، يمكن صناعة نطاق أمني يشكل في مرحلة أولى درع حماية للإطار العربي الذي يات سرير الانفراط في ظل الهجمة الخارجية الشرسة، ومن ثم يمكن الانطلاق إلى موقع أكثر تحسيناً.

هذا التحول يحتاج إلى ثورة إدراكية عالية بأهمية النطاق القومي، بالترافق مع درجة عالية من الحساسية للمخاطر، وتحديد ليس مصادر الخطر وحسب ولكن أيضاً طرق مواصلاته وخطوط مساراته، فعندما يسقط مركز بحرب حلب، تصبح المسافات الباقيّة للقاهرة مجرد مسافة سكة، لأن خطوط الدفاع تصبح أكثر رخاوة وضعفاً، والأهم أن روح المقاومة تبدأ بالانهفاض، كما انهارت تاريخياً في أثناء الغزو المغولي والاستعماري، مثل أحجار الديnamo، والأهم من هذا وذاك أن الخيارات تصبح ضيقة ومحدودة، ومن الغريب أن الخارج يشن هجومه علينا، ليرفع من أسهم خياراته، فيما نسير نحن إلى الانحصار في زوايا ضيقة، بعيون مفتوحة.

العربي الجديد

المصادر: